الباب الثانى

الروح فى الفكر العربى والإسلامى

الروح فى الفكر العربى والإسلامى

وإذا كانت فكرة الروح قد شغلت العقل الإنسانى كله منذ فجر التاريخ ، فقد شغلت بصفة خاصة سكان البلاد العربية ، حيث كانت مهد النبوات ومهبط الرسالات ، فقد كان العربى القديم وهو سارٍ فى الصحراء بين السماء المجلوة والرمال الممتدة يتأمل فى انفعال حار عميق ، طبيعة الحياة فى هذا الكون : ليل ونهار .. ظلام ونور .. كواكب تتلألأ ثم تختفى .. وجود وفناء .. حياة تدب فى الأشياء فتزدهر وتكتمل ثم يدهمها العدم فتتبدد وتتلاشى .. فيهتف : لا يمكن أن يوجد كل هذا عبثاً وبلا غاية .. فلابد من قوة كبرى وراء هذا الكون .. قوة عليا لا يدركها فناء ولا يشوبها نقص ، تتحكم فى كل هذه الكائنات وتهيمن عليها وتسيّرها على هذا النحو الدقيق ، ويبدو أن فكرة الإيمان بدأت على هذا النحو ، ثم اهتدى العقل الإنسانى بعد ذلك إلى أن كل هذه الكائنات من صنع الله ، وأن البشرية كلها نفحة من روح الله ، وأن هناك جوهرًا مجردًا يكمن فى باطن الأشياء ويمنحها الحياة .. فإذا تركها دبَّ إليها الفناء .. هذا الجوهر المجرد الذى يسرى فى كل هذه الكائنات هو الروح .

وتطورت البشرية عبر تاريخها الطويل وعرفت الرسالات السماوية ، وأبدعت الحضارات وتحكمت فى الطبيعة وسخرتها لصالح الحياة ، ولكن معرفتها بهذا العالم المحجوب ظلت أقل من القليل .. لذا كان من الطبيعى أن تشغل هذه الفكرة المحجوبة العقل العربى ، وأن تؤثر فى الضمير وتلهب الخيال وتترك بصماتها فى الفن والأدب .

ومن روائع ما سجل من نثر وشعر حول الروح والنفس نورد فى الصفحات التالية سطوراً قديمة من موعظة قس بن ساعدة الإيادى .. بليغ العرب فى الجاهلية .. وأبياتاً من قصيدة النفس للرئيس ابن سينا .. ثم قصيدة الشاعر أحمد شوقى أمير شعراء مصر فى العصر الحديث .

من موعظة قس بن ساعدة الإيادى قبل الإسلام[1]

« أيها الناس : اسمعوا وعوا .. من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت » .

« ليل داج .. ونهار ساج . وسماء ذات أبراج »
« ونجوم تزهر . وبحار تزخر . وأرض مدحاة »
« وجبال مرساة .. وأنهار مجراة »
« إن فى السماء لخبراً . وفى الأرض لعبراً »
« ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون »
« أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ »

ثم أنشد :

« فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر »
« لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصائر »
« ورأيت قومى نحوها تمضى . الأكابر والأصاغر »
« أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر »

* * *

(١) الأوائل : أبى هلال العسكرى – مطبعة دار أمل – طنجة المغرب الأقصى .

ففيما ذكرناه من كلام قس بن ساعدة الإيادى سواء منه النثر أو الشعر ، نلمس الاهتمام بما وراء الحياة من أسرار وأخبار ، كان العربى قبل الإسلام يحسها ، وكأنه يلمسها بيديه حين يؤكد « إن فى السماء لخبراً » ثم إن قسا يتحدث عن البعث بعد الموت فى بلاغة حين يسأل : « أرضوا فأقاموا ؟ » أم تركوا هناك فناموا » والمفروض طبعا أن اليقظة تجىء بعد النوم ، كما سيأتى البعث بعد الموت .. وهو يتكلم عن حتمية الموت يقيناً فيقول : « أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر » . وكأنه يقرأ ما جاء بعد ذلك فى القرآن (كل نفس ذائقة الموت) . أو (كل من عليها فان) .

* * *

ومن قصيدة النفس للرئيس ابن سينا[٢]

١ – هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
٢ – محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهى التى سفرت ولم تتبرقع
٣ – وصلت على كُرهٍ إليك وربما ... كرهت لقاءك وهى ذات تفجع
٤ – أنفت وما أنِست فلّما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
٥ – وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع
٦ – تبكى إذا ذكرت دياراً بالحمى ... بمدامع تهمى ولما تقطع ..
٧ – وتظل ساجعة على الدمن التى ... درست بتكرار الرياح الأربع
٨ – إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها ... قنص عن الأوج الفسيح الأربع
٩ – حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
١٠ – سجعت وقد كُشِفَ الغطاء فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجع
١١ – وغدت مفارقة لكل مخلف ... عنها حليف الترب غير مشيع
١٢ – وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... سام إلى قعر الحضيض الأوضع
١٣ – إن كان أرسلها الإله لحكمة ... طويت عن الفطن اللبيب الأروع
١٤ – فهبوطها إن كان ضربة لازب ... لتكون سامعة بما لم تسمع
١٥ – وتعود عالمة بكل خفية ... فى العالمين فخرقها لم يرقع
١٦ – وهى التى قطع الزمان طريقها ... حتى لقد غربت بغير المطلع
١٧ – فكأنه برق تألق للحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع

(٢) ابن سينا : هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ، أوسع أطباء المسلمين شهرة ، وأبعد فلاسفتهم ذكراً ، وهو فارسى الأصل ، حفظ القرآن ودرس الرياضيات والطبيعة والمنطق وعلم ما وراء الطبيعة ، ثم وجه عنايته كلها لدراسة الطب فذاعت شهرته كطبيب .. ومن كتبه القانون فى الطب الذى خلد ذكره فى أوربا . والشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات وتوفى سنة ٤٢٨ هـ .

النفس (٣)

لأحمد شوقي *

الملقب « أمير شعراء مصر »

ضمى قناعك يا سعاد أو ارفعى ... هذى المحاسن ما خلقن لبرقع
الصاحيات الضاحكات ودونها ... ستر الجلال وبعد شأو المطلع
يا دمية لا يستزاد جمالها ... زيديه حسن المحسن المتبرع
ماذا على سلطانه من وقفة ... للضارعين وعطفة للخشع
بل ما يضرك لو سمحت بجلوة ... إن العروس كثيرة المتطلع
ليس الحجاب لمن يعز مناله ... إن الحجاب لهيّن لم يمنع
أنت التى اتخذ الجمال لعزه ... سن مظهر ولسره من موضع
وهو الصناع يصوغ كل دقيقة ... وأدق منك بنانه لم تصنع
لمستك راحته ومسّك روحه ... فأتى البديع على مثال المبدع
الله فى الأحبار من متهالك ... يضنو ومهتوك المسوح مصرع
من كل غاوٍ فى طوية راشد ... عاصى الظواهر فى سريرة طيع
يتوهجون ويطفأون كأنهم ... سرج بمعترك الرياح الأربع
علموا فضاق بهم وشق طريقهم ... والجاهلون على الطريق المهيع
ذهب (ابن سينا) لم يَفُزْ بك ساعة ... وتولت الحكماء لم تتمتع
هذا مقام كل عز دونه ... شمس النهار بمثله لم تطمع

---

(٣) النفس : بمعنى الروح .

* أحمد شوقي : أمير شعراء مصر فى العصر الحديث ولد سنة ١٨٦٨م فى رحاب القصور الخديوية .

(فحمد) لك و(المسيح) ترجلا ... وترجلت شمس النهار (ليوشع)

ما بال (أحمد) عى عنك بيانه ... بل ما (لعيسى) لم يقل أو يدّع

ولسان (موسى) انحلّ إلا عقدة ... من جانبيك علاجها لم ينجع

لما حللت بآدم حلّ الحُبى ... ومشى على الملأ السجود الركع

وأرى النبوة فى ذراك تكرمت ... فى (يوسف) وتكلمت فى المرضع

وسقت (قريش) على لسان (محمد) ... بالبابلى من البيان الممتع

ومشت (بموسى) فى الظلام مشرقا ... وحدته فى قلل الجبال اللمع

حتى إذا طويت ورثت خلالها ... رفع الرحيق وسرّه لم يرفع

قسمت منازلك الحظوظ فنزلا ... أترعن منك ومنزلا لم تترع

وخلية بالنحل منك عميرة ... وخلية معمورة بالشيع

وحظيرة قد أودعت غرر الدمى ... وحظيرة محرومة لم تودع

نظر (الرئيس) إلى كمالك نظرة ... لم تخل من بصر اللبيب الأروع

فرآه منزلة تعرض دونها ... قصر الحياة وجال وشك المصرع

لولا كمالك فى (الرئيس) ومثله ... لم تحسن الدنيا ولم تترعرع

الله ثبت أرضه بدعائم ... هم حائط الدنيا وركن المجمع

لو أن كل أخى يراع بالغ ... شأو (الرئيس) وكل صاحب مبضع

ذهب الكمال سدى وضاع محله ... فى العالم المتفاوت المتنوع

يا نفس مثل الشمس أنت أشعة ... فى عامر وأشعة فى بلقع

فإذا طوى الله النهار تراجعت ... شتى الأشعة فالتقت فى المرجع

لما نعيت إلى المنازل غودرت ... دكا ومثلك فى المنازل ما نعى

ضجت عليك معالما ومعاهداً ... وبكت فراقك بالدموع الهمع

آذنتها بنوى فقالت ليت لم ... تصل الحبال وليتها لم تقطع

ورداء جثمان لبستِ مرقم ... بيد الشباب على المشيب مبرقع

كم بنت فيه وكم خفيت كأنه ... ثوب الممثل أو لباس المرفع

أسأمت من ديباجة فنزعته ... والخز أكفان إذا لم ينزع

نزعت وما خفيت عليها غاية ... لكن من يرد القيامة يفزع

ضرعت بأدمعها إليك وما درت أن السفينة أقلعت فى الأدمع
أنت الوفية لا الزمام لديك مذ موم ولا عهد الهوى بمضيع
أزمعت فانهلت دموعك رقة ولو استطعت إقامة لم تزمع
بان الأحبة يوم بينك كلهم وذهبت بالماضى وبالمتوقع

الروح عند عدد من مفكرى المسلمين

ولسنا هنا بصدد الإحاطة بكل ما كان لفكرة الروح من تأثير على جوانب الفكر العربى والإسلامى ، وإنما سنحاول فقط أن نعرض لمحات من آراء عدد من مفكرى المسلمين فى هذه المسألة ، هم الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، والرازى باعتبارهم ممن يمثلون العقل العربى على أرفع مستوى ، كما أنهم لم يقتصروا على الثقافة العربية وحدها .. بل كان لهم إلمام واسع بعلوم الأوائل (كما كانت تسمى فى زمانهم ثقافة اليونان والهنود والفرس) إلخ ، ثم نعرض لرأى الدكتور عبد الحليم محمود والكاتب / عباس محمود العقاد .

١ – الفارابى (٢٥٩ هـ / ٣٣٩ هـ) :

تناول أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى هذه القضية فى أهم مؤلفاته ، وهى عنده جوهر بسيط مباين للجسد .. وهى مرادفة للنفس .. وهى نفس فاضلة ونفس جاهلة .. فالأولى تعمل الخير دائماً ، حتى تنطبع عليه ويصبح سجية لها ، وهذه هى النفس الخالدة المطمئنة فى رحاب الله .. ويقول فى كتابه (الثمرة المرضية) : إن الروح الذى لك من جوهر عالم الأمر ولا يتعين بإشارة ولا يتردد بين سكون وحركة ، ولذلك تدرك المعلوم الذى فات والمنتظر الذى هو آت وتسبح فى عالم الملكوت وتتقمش من خاتم الجبروت [٤] والفارابى

---

(٤) الثمرة المرضية للفارابى .

لا شك يذكرنا بأفلاطون وأرسطو وآراء الإغريق حول هذا الموضوع ، فهو يسبح فى جو قريب من الأجواء التى كانوا يسبحون فيها .. والنفس الخالدة عند الفارابى هى التى تبلغ مرتبة العقل المستفاد ، وتصبح فى غنى عن المادة قادرة على الاتصال بالعقل الفعال ، ويهتم الفارابى بهذا العقل الفعال ، فهو (الروح الأمين) أو روح القدس ، الذى يهب الصور للعقل الإنسانى .

٢ – ابن سينا :

هو أبو على الحسين عبد الله بن سينا ، فارسى الأصل توفى سنة ٤٢٨ هـ . وابن سينا كالفارابى وفلاسفة المؤمنين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، وحاولوا التوفيق بينها وبين قيم الإسلام الفكرية ، وربما كان تأثره فى هذه القضية أشد ، فهو يصطنع تعريف أرسطو المشهور للنفس فيعرفها بأنها كمال أول لجسم طبيعى إلى ذى حياة بالقوة[٥] .

وبهذا التعريف يحدد ابن سينا نظريته لطبيعة النفس والروح ، فهى صورة للجسد وبداية لوظائفه الحيوية ، ثم هى مرتبطة به توجد بوجوده وتفنى بفنائه ، وقد كان ابن سينا يرى هذا الرأى فى مرحلة من مراحل حياته ، ولكنه عاد بعد ذلك واهتدى إلى تصور مخالف فالنفس (جوهر مجرد مخالف للبدن مستقل عنه) . ثم هو يرى أن العقل قوة من قوى النفس ، والناس عنده صنفان صنف مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية إلى أن يشتعل حدساً .. وهؤلاء يتلقون الوحى عن العقل الفعال ويعلمون كل شىء وتتكشف لهم المعقولات دفعة واحدة ، ويصف ابن سينا طريق هؤلاء بأنه ضرب من

---

(٥) د . فؤاد الأهوانى ابن سينا ص ٦٢ .

النبوة . واهتمام ابن سينا بهذ الموضوع ناشئ عن نظريته فى السعادة .. سعادة النفس .. فهى حالة توصف بها بعد مفارقتها للجسد .. ولا ينالها إلا هؤلاء الذين تخلصوا من شواغل البدن . وخلصوا على عالم القدس والسعادة وانتقشوا بالكمال الأعلى وخلصت لهم اللذات العليا وصنف بخلاف ذلك .. كذلك يقسم ابن سينا النفوس إلى نفوس بله ، ونفوس قدسية . فالأولى التى لم تكتسب الشوق إذا فارقت البدن غير مكتسبة للهيئات البدنية الردية صارت إلى سعة من رحمة الله ، فإن اكتسبتها تتعذب عذاباً شديداً يفقد البدن . أما الأنفس القدسية ، فإنها تتبرأ عن مثل هذه الأحوال وتتصل بكمالها بالذات وتنغمس فى اللذة العقلية ، فالسعادة عند ابن سينا أن تتخلص النفس من شهوات البدن وتعيش حياة عقلية عليا .

٣ – الغزالى (٤٥٠ هـ / ٥٠٥ هـ) :

أما حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى (صاحب إحياء علوم الدين) فقد كان ظاهرة من أبرز ظواهر الفكر الإنسانى ، جاء فى الفكر الإسلامى كالإعصار ، فحرك كل شىء واقتلع فى طريقه كثيراً من الأشجار التى كانت قد غرستها الفلسفات الدخيلة فى التربة الإسلامية ، ودمر كثيراً من أفكار الفلاسفة وعزلهم عن التأثير فى الوجدان العربى لأعوام طويلة[٦] .

وموقفه من عالم الروح من أصدق المواقف وأعمقها فهو صورة فريدة للفكر الإنسانى العظيم .. الثقافة عنده مجاهدة ، والفكرعنده إشراق ، ووجود المعرفة عنده علم وسلوك .. ولقد توصل إلى كل أولئك من خلال تجربة ثقافية وروحية من أعمق التجارب التى مرت بمفكر فى العالم .. عانى خلالها المشقة الفادحة

---

(٦) أبو حامد الغزالى فى ذكراه المئوية التاسعة ص ١٠٧ .

التى أوهنت جسمه وأرهقت روحه وكادت تصل به إلى الجنون . ولذلك فهو عندما يتحدث عن الروح أو النفس أو القلب وكلها مترادفات عنده ، فإنما يتحدث عن تجربة شخصية ومعاناة حقيقية ، فهو يقول فى كتابه (كيمياء السعادة) :

(الإنسان من عالم الخلق من جانب ومن عالم الأمر من جانب .. فكل شىء يجوز عليه المساحة والمقدار والكيفية ، فهو من عالم الخلق .. وليس للقلب مساحة ولا مقدار ، فهو من عالم الأمر) .

والغزالى يقصد بعالم الأمر عالم الغيب ، فالقلب عنده أو الروح من عالم الغيب ، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية من ذلك المكان جاء وإلى ذلك المكان يعود ، وللقلب باب يطل على الباطن يحصل الإنسان من خلاله كل المعارف دفعة واحدة فى حالة من حالات (الكشف) .

ويؤكد الغزالى أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت ، تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون ، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة .. وتارة فى اليقظة على سبيل كشف المعانى بمشاهدة الأمثلة ، كما يكون فى المنام وهذا أعلى الدرجات . ويرى الغزالى أن الروح محجوبة فى هذا العالم المادى الصارم ، والأرواح الخيرة تجاهد وتجالد حتى تتخلص من هذا السجن ، ويزول الحجاب بالموت ، وتصعد هذه الأرواح الطاهرة لتنعم فى رحاب الله . واهتم الغزالى اهتماماً كبيراً بفكرة الثواب والعقاب فى العالم الآخر .

ومصير الروح فى هذا العالم ولقد ألحت هذه الفكرة على عقول الفلاسفة المسلمين وبعض الفلاسفة الماديين ، لأنها كانت تتصل بقضية البعث بعد الموت والحشر ، وهل تحشر الأجساد والأرواح وتعود كل روح إلى جسدها ؟ أو أن

الحياة فى العالم الآخر تقتصر على الأرواح ؟ أو أن كل شىء ينحل ويعود إلى التراب وتنتهى دراما الحياة فلا بعث ولا حشر كما يقول الماديون ؟ ولقد اشتبك الغزالى مع كل الفلاسفة الذين خاضوا فى هذا الأمر بعنف وفند آراءهم ، وسخر من تصوراتهم . يقول : (اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنوناً كاذبة ، فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ، وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما الثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد ، وأن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا ، وكل هذه ظنون فاسدة وماثلة عن الحق ، بل تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات تستعملها حتى إنها لتبطش باليد ، وتسمع بالأذن ، وتبصر بالعين . وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب هنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة .. فكل ما هو وصف للروح بنفسها يبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد . والغزالى يقرر أن الإنسان ينكشف له بالموت ما لم ينكشف له بالحياة ، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا له فى النوم (والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من سيئاته وحسناته ، وقد كان ذلك مسطوراً ، فى جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا تحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ..) أما هؤلاء الذين عاشوا فى الدنيا يزرعون للآخرة فهم الذين يتخلصون لذّات النعيم ، ويؤكد الغزالى أن أعظم اللذات الخالدة للشهداء

الذين قتلوا فى سبيل الله ، لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله .. وهكذا تختلط فى تصور الغزالى لعالم الروح الومضات الصوفية بالتأملات النفسية بالنظرات العلمية .. وهو لهذا من أهم مفكرى العرب والمسلمين الذين تناولوا هذا الموضوع الجليل بالدرس والتحليل .

٤ – ابن رشد (٥٢٥ هـ / ٥٩٥ هـ)[٧] :

أراد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، أكبر شراح أرسطو وأبعد فلاسفة الإسلام شهرة ، أن يوفق بين تعريف النفس لأرسطوطاليس وتعريفها لدى الرئيس ابن سينا ، فقال إنها صورة للبدن وجوهر مستقل فى نفس الوقت . فهى صورة للبدن بمعنى خاص وهو أنه لا وجود للبدن دونها ، ولا يمكن للعقل تصوره إلا بها ، كما أنه لا وجود للتمثال إلا بصورته . ومن هذا يتبين لنا أن الفيلسوف القرطبى أخذ عن أرسطو عبارته فى تعريف النفس فقال : إنها (هى التى تجرى منها مجرى الصورة لا مجرى الهيولى (المادة). ولكنه لم يكن أرسطوطاليسيا بمعنى الكلمة، فقد فسر أرسطو على نحو يقربه إلى حد كبير من آراء المسلمين فى طبيعة النفس، وقال فى تلخيص كتاب النفس[٨]

إنه يجب التفرقة بين نفوس ثلاث هى :

١ – النفس النباتية .

٢ – النفس الحيوانية .

٣ – النفس الإنسانية أو العاقلة .

أما النفسان الأوليان فليستا مفارقتين للبدن ولا يمكن أن تنفصلا عنه بحال

---

(٧) عن كتاب فى النفس والعقل للدكتور محمود قاسم .

(٨) مخطوط فى مكتبة باريس الأهلية تحت رقم Mns fonds hébeu, 1009.

ما ، فهما توجدان بوجود النبات أو الحيوان وتفنيان بفنائهما ، أما النفس الإنسانية : فإنها من جنس آخر ، وابن رشد يميل إلى تفسير مذهب أرسطو فى النفس على نحو يتفق مع القول بروحانيتها ، ويدل على ذلك أنه يعرفها بأنها الجوهر الذى هو الصورة ، ومن يقول مثله بأنها جوهر يعترف ضمناً بأنها قائمة بذاتها ، وبأن الإنسان مركب من جوهرين : أحدهما نفسه ، والآخر بدنه . والذى دعا ابن رشد إلى تفسير أرسطو على هذا النحو أنه فطن إلى ما يجره تعريف أرسطو للنفس من صعوبات ، لأنها لا تتفق مع روح الإسلام وعقائده . ويرى ابن رشد أن حل هذه الصعوبات ليس باليسير ، فالكلام فى أمر النفس غامض جدًّا ، وإنما اختص الله به من الناس العلماء الراسخين فى العلم . ولذلك قال سبحانه مجيباً فى هذه المسألة الجمهور عندما سألوه بأن هذا الطور من السؤال ليس من أطوارهم فى قوله سبحانه : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

ولكن ابن رشد استطاع أن يوفق بين تعريف أرسطو للنفس الذى ينكر خلودها ، وبين رأى الرئيس ابن سينا الذى ينكر أن النفس صورة للبدن ، أى يفصل بين معنيين .. الكمال والصورة ، إذ قال ابن رشد إن النفس وإن كانت صورة للبدن كما يقول أرسطو ، إلا أنها صورة من جنس خاص ، فإنها ليست كباقى الصور التى لا تنفك عن أجسامها ، فلا يمكن تصورها مستقلة عنها وقائمة بذاتها ، بل إنها جوهر مستقل ، وهى فى الوقت نفسه صورة للبدن حلت فيه لحكمة إلهية ، وهى إلى جانب ذلك ذات روحية غير جسمية ، فابن رشد جعل النفس ذاتاً مستقلة تدبر الجسم ، وهى فى نفس الوقت صورته .

٥ – الرازى :

وقد أجمل الإمام الرازى أسباب الإعضال فى مسألة الروح فقال : (إنهم سألوا عن الروح وأنه صلوات الله وسلامه عليه أجاب على أحسن الوجوه . وبيانه أن المذكور فى الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال يقع على وجوه .

أحدها : أن يقال ماهيته ؟ هل هو متحيز أو حالّ فى المتحيز ، أو موجود غير متحيز ولا حالّ فيه ؟

وثانيها : أن يقال أهو قديم أم حادث ؟

وثالثها : أن يقال هل هو يبقى بعد فناء الأجسام أو يفنى ؟

ورابعها : أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟

وبالجملة : فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة وليست فى الآية دلالة على أنهم عن أى هذه المسائل سألوا . إلا أنه تعالى ذكر فى الجواب (قل الروح من أمر ربى) . وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين :

إحداهما : السؤال عن الماهية ، أهو عبارة عن أجسام موجودة فى داخل البدن متولدة عن امتزاج الطبائع والأخلاط ؟ أم هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب ، أو عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام ، أو عن موجود يغاير هذه الأشياء ؟ فأجاب الله تعالى بأنه موجود مغاير لهذه الأشياء . بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله : كن فيكون . فهو موجود يحدث من أمر الله ، وتكوينه وتأثيره فى إفادة الحياة للجسد ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه مطلقاً ، وهو المقصود من قوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وثانيتهما : السؤال عن قدمها وحدوثها ، فإن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل

كقوله تعالى : (وما أمر فرعون برشيد) . فقوله : من أمر ربى ، معناه من فعل ربى ، فهذا الجواب يدل على أنهم سألوه عن قدمه وحدوثه ، فقال : بلى هو حادث . وإنما حصل بفعل الله وتكوينه . ثم احتج على حدوثه بقوله : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) يعنى أن الأرواح فى مبدأ الفطرة خالية من العلوم كلها ، ثم تحصل فيها المعارف والعلوم ، فهى لا تزال متغيرة من حال إلى حال ، والتغير من أمارات الحدوث . وتلخيص الإمام الرازى للمعضلة شامل لجوانبها المتعددة ، كما بدت للمفكرين من الفلاسفة الأقدمين وبخاصة علماء الكلام . ولا نظن أن المحدثين جاءوا بغرض من الأغراض فى تفسير الروح لم يسبقهم إليه الأقدمون . مع ملاحظة الفارق فى بحوث علم الحياة ووظائف الأعضاء بين علماء اليوم وعلماء الزمن القديم . فمن المفكرين الأقدمين من قال إن الروح أجسام لطيفة سارية فى البدن سريان ماء الورد فى الورد . باقية من أول العمر إلى آخره لا يتطرق إليه تحلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من تلك الأجزاء إلى سائر الأعضاء . ومنهم من قال : إنه جزء لا يتجزأ فى القلب . أو قال إنه جسم هوائى فى القلب ، أو قال إنه جسم هوائى فى الدماغ . أو قال إنه قوة تلى الدماغ وهو مبدأ الحس والحركة . أو قال إنه أجزاء نارية وهى المسماة بالحرارة الغريزية . أو قال إنه الدم المعتدل تقوى الحياة باعتداله وتفنى بفنائه . أو قال إنه جسم بخارى تكون من طاقة الأخلاط وبخاريتها كتكون الأخلاط من كثافتها .

وهو الحامل للقوى الثلاث وهى قوة الروح الحيوانى ، وقوة الروح النفسانى ، وقوة الروح الطبيعى .. ومنهم من قال بأن الروح جوهر مجرد يتفاوت فى التجرد والصفاء ، فهو فى العارفين الخالصين أصفى منه فى غيرهم من ذوى الأرواح .

ومنهم من قال غير ذلك ولم يخرج عن فحوى فرض من تلك الفروض ، كما أحصاها التهانوى صاحب كشاف اصطلاحات الفنون فى مادة الروح[٩] .

الروح والنفس ورأى بعض الصوفية

١ – القشيرى (٣٧٦ هـ / ٤٦٥ هـ) :

يحدثنا عبد الكريم أبو القاسم القشيرى ، بأن المراد بالنفس عند القوم هو ماكان معلولا من أوصاف العبد ، وماكان مذموماً من أخلاقه وأفعاله (كالمعاصى والمخالفات والأخلاق الدنيئة التى إذا عالجها بالمنازلة والمجاهدة انتفت عنه) .

ويذكر القشيرى فوق هذا الذى يحدد معناها بمتعلقاتها تعريفاً يمكننا أن نقول عنه : إنه يحدد معناها بجوهرها وطبيعتها الحقيقية ، فمن المحتمل عنده أن تكون النفس لطيفة مودعة فى هذا القالب الذى هو الجسم ، وأنها محل للأخلاق المذمومة ، كما أن الروح لطيفة فى هذا القالب وأنها محل للأخلاق المحمودة ، وأن جملة الروح والنفس والبدن تكون إنساناً واحداً بعضه مسخر لبعض . ويلاحظ القشيرى إلى جانب هذا أن حقيقة الروح مختلف فيها عند المحققين من أهل السنة : منهم من يقول إن الحياة تسرى فى القوالب ما دامت الأرواح مودعة فيها ، لأن الأرواح لطيفة ربانية ، وللأرواح ترق فى حال النوم ومفارقة للأبدان ثم رجوع إليها . والإنسان روح وجسد . ومن قال إن الأرواح قديمة غير مخلوقة فقد أخطأ خطأ عظيماً[١٠] .

فإذا نظرنا إلى هذه الآراء المختلفة نظرة فاحصة رأينا أنها تتفق من وجه

---

(٩) سبق الإشارة إليه فى مدخل الكتاب .

(١٠) الرسالة القشيرية ص ٤٤ / ٤٥ ألفها سنة ٤٤٣ هـ .

وتختلف من وجه ، ورأينا أن الاختلاف بينهما قوى إلى حد يؤدى إلى الخلط والاضطراب اللذين يؤديان بدورهما إلى أن نقف من المسألة موقف الحيرة والتردد ، لا ندرى هل الروح هى النفس أو غيرها ، وهل يصح أن نطلق خصائص الروح على النفس أو لا يصح :

فأما وجه الاتفاق فيظهر لك إذا لاحظت أن ابن حبيب وابن عباس والمحققين من أهل السنة مجمعون على أن الروح هى الحياة أو مصدر الحياة على أقل تقدير ، وأما وجه الخلاف فيبدو من أن ابن حبيب ينظر إلى النفس على أنها شهوية تلتذ وتتألم ، وابن عباس ينظر إليها على أنها عاقلة تدرك وتميز وتحكم ولا يقف الاتفاق والخلاف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى شيء آخر . فابن حبيب وابن عباس متفقان على أن النفس وحدها تتوفى فى حال النوم ، ويخالفهما فى ذلك بعض المحققين من أهل السنة ، إذ يذهبون إلى أن الروح هى التى تفارق البدن وتترقى فى حال النوم .

٢ – الجرجانى : (١١)

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف فقد حاول الجرجانى التخلص من الخلط ، فى تحديد طبيعة الروح والنفس فى تعريفاته ، حيث كشف لنا عن حقيقة النفس والروح فقال عن الأولى ما نصه :

« هى الجوهر البخارى اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية . وسماها اللطيف الخبير الروح (الحيوانية) : فهو جوهر مشرف للبدن ، وعند الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما فى وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه . فثبت أن النوم والموت من جنس واحد ،

(١١) التعريفات للجرجانى مادة روح ص ٧٦ / ٧٧ ومادة ص ١٦٤ / ١٦٥ .

لأن الموت هو الانقطاع الكلى ، والنوم هو الانقطاع الناقص . وثبت أن الخالق جل وعلا دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب : الأول إن بلغ ضوء النفس إلى جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة ، وإن انقطع ظاهره عن باطنه فهو النوم أو بالكلية فهو الموت » .

وقال عن الروح ما نصه :

« الروح الإنسانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيوانى نازل من عالم الأمر تعجز العقول عن إدراك كنهه ، وذلك الروح قد يكون مجرداً وقد يكون منطبقاً فى البدن » .

٣ – ابن الفارض (٥٧٧ هـ / ٦٣٢ هـ) :

لم يكن عمر بن أبى الحسن بن الفارض الحمدى الأصل المصرى المولد الصوفى الشاعر ، متحريا الدقة ، والوضوح فى لفظتى النفس والروح إلى الحد الذى نتمكن معه من معرفة حقيقة مذهبه ، فنحن نقرأ بعض شعره فنحس أن النفس عنده هى الروح ، أو أن الروح هى النفس حيث يستعملها كمترادفين لمعنى واحد . ثم نقرأ فنتبين أن النفس غير الروح والروح غير النفس . إذ ينتهى بنا إلى أن النفس بشرية مشوبة بشوائب الحس ورغبات البدن على عكس الروح، فإنها إلهية من عالم الأمر. فالنفس أقل مرتبة فى حبها ومعرفتها عن الروح ، لأن النفس محل الشهوات والحظوظ الباطلة والأمانى الحائلة ، أما الروح فإنها محل الحب الإلهى الذى منحته فى عالم الأمر ومركز الشهود الذى تدرك فيه الذات الإلهية إدراكاً عينيًّا لا مدخل للحواس فيه[١٢] .

ومن هنا يكون لابن الفارض مذهبان متناقضان فى مسألة هامة كهذه .

---

(١٢) ابن الفارض والحب الإلهى : د. محمد مصطفى حلمى – الطبعة الأولى ١٩٤٥ .

ومثال ذلك (فى قصيدته الغائية) :

مالى سوى روحى وباذل نفسه ... فى حب من يهواه ليس بمسرف

وفى قصيدة أخرى :

أغار عليها أن أهيم بحبها ... وأعرف مقدارى فأنكر غيرتى

فتختلس الروح ارتياحاً لها وما ... أبرئ نفسى من توهم منية

فهو إن كان فى القسم الأول من شعره شاعراً أكثر منه صوفيًّا .. فهو فى قصيدته الثانية الكبرى صوفى بكل معانى الكلمة . وإذا نحن استثنينا من شعره الأبيات التى يقع فيها الخلط بين النفس والروح رأينا أن القاعدة العامة عنده هى التفرقة بينهما ، فهو يذهب إلى أن النفس مركز للصفات الحسية والشهوات البدنية والأخلاق المذمومة مما يحول بينها وبين الاتصال بالحق وشعورها باتحادها معه وشهودها له .

فإذا أردنا بعد معرفتنا لطبيعة النفس عند ابن الفارض أن نتعرف طبيعة الروح ، وكيف كان الشاعر يثبت لكل من الطبيعتين ما يميز إحداهما عن الأخرى ، رأينا أن أخص ما تمتاز به الروح سبقها فى الوجود على البدن ، فهى موجودة فى عالم الأمر قبل أن يوجد البدن فى عالم الشهادة ، وهى مستقلة فى حبها للذات وفى معرفتها لها استقلالا تامًّا عن البدن وحواسه .. ومما يدل على هذه التفرقة عند ابن الفارض قوله :

وبعد فحالى فيك قامت بنفسها ... وبيّنتى فى سبق روحى بنيتى

وقال فى هذا المعنى :

منحت ولاها يوم لا يوم قبل أن ... بدت عند أخذ العهد فى أوليتى

فنلت ولاها لا بسمع مناظر ... ولا باكتساب واجتلاب جبلّة

وهمت بها فى عالم الأمر حيث لا ... ظهور وكانت نشوتى قبلَ نشأتى

كذلك ليس أدل عنده على التفريق بين النفس والروح من قوله :

فبالنفس أشباح الوجود تنعمت وبالروح أرواح الشهود تهنت

ولكن ما عسى أن يكون مكان البدن من النفس والروح وما ينكشف لها من المعارف عند ابن الفارض ؟

ينظر ابن الفارض إلى البدن نظرة لا تقل فى قيمتها النفسية عن نظرة علماء النفس :

فالبدن عنده محل الإحساسات ، والروح محل المعانى الخفية المقابلة للمحسوسات الظاهرة . وبعبارة أخرى نقول مع ابن الفارض إن حواس البدن تدرك بواسطة النفس المتعلقة به صور الأشياء فى عالم الشهادة . على حين أن الروح بفضل تجردها عن البدن وحواسه تدرك معانى هذه الصور فى عالم الغيب .

ونستخلص من كل ما تقدم أن الإنسان فى نظر ابن الفارض روح ونفس وبدن ، وأن لكل من هذه الأشياء الثلاثة ما يميزه عن الآخر ، سواء فى موضوعه أم فى طبيعته . وليس معنى هذا أن فى الإنسان جزءاً مستقلا عن غيره من الأجزاء ، سمّى بالروح واختص بإدراك المعانى الخفية ، وجزءاً ثانيا مستقلاً سمى بالنفس واختص بتدبير البدن ، وجزءاً ثالثاً سمى بالبدن واختص بإدراك الصور المحسوسة ، بل الإنسان المؤلف من هذه الأجزاء عبارة عن وحدة بعضها مسخر لبعض ومتصل ببعض . فالإنسان عنده وحدة على الرغم من الإحساسات المختلفة التى تحسها نفسه بطريق الحواس المتعددة .

ونعرض إتماماً للفائدة من الكتب النادرة – ما تلقيناه من كنوز السلف عن « حقيقة الإنسان والروح الجوال فى العوالم » للإمام العلامة جلال الدين محمد بن سعد الدين أسعد الصديقى الدوانى المتوفى سنة ٩٠٨ هـ . وقد عرف

الكتاب وترجم للمؤلف وعلق عليه المحقق الكبير الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية سابقاً – وقد عنى بنشره ووقف على طبعه (الطبعة الأولى فى شهر شعبان ١٣٦٦ هـ الموافق يونية ١٩٤٧ م) السيد / السيد عزت العطار الحسينى وقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) .

« الحمد لله الذى جعل الروح سرًّا من الأسرار الخفية ، استأثر بعلمه وتعليمه لذاته العلية ، والصلاة والسلام على أشرف البرية نبينا محمد سيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين »[١٣] .

أما بعد : فإن شره العقول حمل الإنسان على الخوض فى كل مكان ، فى مباحث الروح التى صعبت مسالكها ، وعلت مداركها ، ولعلماء الإسلام قديماً وحديثاً بحوث مستفيضة فى ذلك معروفة ، بل لفلاسفة الغرب اشتغال طويل عريض فى المدة الأخيرة بمباحث النفس وأحوالها ، وبدراسة الروح الإنسانى وما إلى ذلك بمثابرة ، محاولين إدخال الأرواح البشرية تحت سلطان تصرفهم المادى ، بتجارب يتخيلون إمكان إجرائها فى إحضارها ومخاطبتها ، شأنهم فى مغامراتهم فى جميع التجارب المادية ، وستبدى الأيام عن مرد أمر هؤلاء الباحثين المندفعين بشره العقول .

والإنسان بطبعه إذا خلا بنفسه لا يخلو من التفكير فى شئون الروح ، وعجائب أسرار الله فيه فيرغب فى الاطلاع على ما قاله أساطين أهل العلم فى

(١٣) كلمة الناشر.

تلك المسائل العويصة . لتعرف صلة الروح بالجسد ، ووجه انقطاع تلك الصلة عند حلول الموت إلى غير ذلك من الشئون الروحية ، رغبة منه فى ازدياد العلم من هذه الناحية على وعورة هذه المسالك . ولقد شغلتنى هذه الأفكار مدة غير وجيزة ، وما زالت تشغلنى إلى الآن ، وهذا ما جعلنى أوالى السؤال والبحث عند من أثق بهم من أهل العلم والفضل ، عن علماء الإسلام الذين كتبوا فى هذا الموضوع وعن الكتب المدونة فيه المطبوع منها والمخطوط ، وممن استرشدت برأيهم صاحب الفضيلة العالم الجليل السيد محمد رشيد الحواصلى الدمشقى ، فأرشدنى حفظه الله تعالى إلى رسالة مخطوطة عنوانها « حقيقة الإنسان » للإمام جلال الدين الدوانى ، موجودة عند الأستاذ الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية سابقاً ، ونزيل القاهرة الآن أمد الله فى عمره وأنها لرسالة على صغر حجمها تشفى غلة الباحث إلى أمد بعيد ، وتفتح أفقاً جديداً فى هذا الموضوع الخطير .

فقصدت ساحة مولانا الكوثرى وطرقت بابه لما لى من الدالة على فضيلته ، ورجوت منه أن يتكرم علىّ بالرسالة المذكورة ، ويسمح لى بنشرها لتغذية المكتبة العربية الإسلامية ، وأن يتكرم بكتابة تقدمة لها وترجمة لمؤلفها مع التعليق عليها فأجابنى حفظه الله تعالى وأبقاه إلى رغبتى ، كما هى عادته فى نشر العلوم وتثقيف العقول فكتب لها تقدمة وجيزة ، وعلق عليها تعليقاً علمياً مفيداً ، وها هى ذى الرسالة أقدمها لقراء العربية ، ورجال العلم ، والفلسفة راجياً أن تنال تقديرهم .

والله سبحانه وتعالى أسأل التوفيق فى الدنيا والرحمة والغفران فى الآخرة .

الناشـر

السيد عزت العطار الحسينى

حقيقة الإنسان

رسالة بديعة للعلامة جلال الدين محمد بن سعد الدين أسعد الصديق الدوانى ، بتشديد الواو ، نسبة إلى دوان على وزن شداد . موضع فى كازرون بأرض فارس قرب شيراز ، وهو ممن جمع بين العلوم الشرعية والعلوم الفلسفية ، وكان يرحل إليه من أقاصى البلدان لتلقى العلم منه .

وحقيقة الإنسان كما هو موضوع هذه الرسالة له ناحيتان ناحية الهيكل الجسمانى وهو بطبعه يتهافت على الملذات السفلية ، وناحية الروح وهو لطيفة ربانية حثيثة الطيران إلى المعالى ، ويعجز أكثر العقول عن درك كنه حقيقة الروح ذلك الأمر الربانى العجيب ، وللروح والنفس والقلب والعقل إطلاقات فى اصطلاحات أهل العلم ، قد تتلاقى أو تتفارق وليس هذا موضع إيضاح ذلك ، وقد عنى الغزالى فى عجائب القلب بشرح تلك الاصطلاحات . وأفراد الإنسان على منازل متفاوتة فى صلتهم بالناحيتين ، فمن غلب عليه الانهماك فى الملاذ الجسمية فهو ملحق بالأنعام ، قال الله تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل) ، ومن خلص من سلطان الملاذ الجسدية وغلب عليه جانب تلك اللطيفة الربانية ، فهو ملحق بالملائكة على مدارج متصاعدة ، ومن تجاذبه الجانبان من غير أن يتغلب فيه أحد الجانبين على الآخر فهو المجاهد لنفسه وقد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وقد اختلف أهل العلم فى الروح الذى اعتبرناه لطيفة ربانية ، ثم بها سلطانه على الكون هل هو جسم لطيف يحل فى الجسم الكثيف الإنسانى – وهو

مذهب الجمهور – أو جوهر مجرد لا مكانى ، لا يوصف بالحلول والدخول ولا بالخروج والانفصال وغير ذلك من أوصاف الأجسام ، بل يوصف بالتعلق به تعلق تدبير ويقطع الموت تعلقه به ذلك التعلق ، والناس فى تفهم ذلك على أنحاء فالعامى لا يتصور موجوداً كهذا فى حين أن الخاصة لا ينكرونه وإن دقت مداركه ، ولهم فى تجرد الروح أدلة ليس الجمهور على قبولها ، وممن مال إلى تجرد الروح أبو منصور الماتريدى والحليمى صاحب (شعب الإيمان) والراغب الأصفهانى ، والغزالى ، والرازى ، والبيضاوى ، وكثير غيرهم ، ومن أحسن من تكلم فى ذلك البطليوسى فى الحدائق .

ومن أدلة القائلين بتجرد الروح الذى هو النفس الناطقة أن معلوماته لا تقف عند حد ، فلو كان الروح جسماً لكانت معلوماته واقفة عند حد لتعذر ارتسام ما لا نهاية له من الصور فى جسم محدود ، وتفهم تجرد الروح يعين كثيراً على فهم تنزه الإله جل شأنه من الزمان والزمانيات والمكان والمكانيات ، وهذا ما لا يرقى إليه فهم العامى أصلاً فالواجب الاكتفاء بالتنزيه العام فى إثبات الصفات العليا من غير خوض فى ذلك وهذا كاف للجميع فى النجاة . لكن شره العقول يحمل الإنسان على الخوض فيما لا قبل له به فيضل بسبب الخوض كثير من البشر فى وادى الحيرة ، بل قال الغزالى فى (النفخ والتسوية) : الناس قسمان عوام وخواص ، أما من غلبت على طبعه العامية فلا يقبل كون الله سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه ، فضلاً عن أن يقبل ذلك فى الروح الإنسانى ، وأطال الكلام فى ذلك إلى أن قال : ومن كانت العامية غلبت عليه – كأكثر الكرامية والحنبلية – جعل الإله جسماً إذ لا يعقل موجوداً إلا متجسماً مشاراً إليه . ومن ترقى عن العامية قليلا نفى الجسمية ، وما أطاق أن ينفى عوارض الجسمية فأثبت الجهة ، وترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة فأثبتوا موجوداً لا فى جهة

لكنهم أحالوا أن تكون هذه الصفة لغير الله ، حتى نفى جمهورهم تجرد الروح – ثم أفاض الغزالى فى ترجيح ما ارتآه فى هذا الصدد .

قال البدر العينى فى شرح البخارى (٢ – ٦٠١) عند الكلام فى الروح : هو جوهر لطيف نورانى ، يكدره الغذاء والأشياء الرديئة الدنيئة ، مدرك للجزئيات والكليات حاصل فى البدن متصرف فيه ، غنى عن الاغتذاء ، برىء عن التحلل والفناء ، ولهذا يبقى بعد فناء البدن إذ ليست له حاجة إلى البدن ، ومثل هذا الجوهر لا يكون من عالم العنصر بل من عالم الملكوت ، فمن شأنه ألا يضره خلل البدن ، ويلتذ بما يلائمه ويتألم بما ينافيه ، والدليل على ذلك قوله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم) الآية ، وقوله ﷺ : إذا وضع الميت على نعشه رفرف روحه ويقول : (يا أهلى ويا ولدى) . فإن قلت كيف يفسر الروح وقد قال تعالى : (قل الروح من أمر ربى) قلت معناه من الإبداعات الكائنة يكون من غير مدة وتولد من أصل ا . هـ . وفى فيض البارى (٣ – ٤٢٥) عند الكلام فى حياة الشهداء : واعلم أن الحديث أسند الأكل والشرب إلى النسمة دون الجسد ، فإنه فى التراب فدل على أن النسمة غير الجسد ، وكذلك غير الروح ، لأن الروح لا يسند إليها الأكل والشرب ما لم تتصل بجسد مادى ا . هـ .

ومن اطلع على ما ألف فى الروح من الكتب ، ثم طالع رسالة الدوانى هذه يجدها على صغرها بديعة الأسلوب جمة الفوائد ، تطرق بحوثاً سكت عنها آخرون ، وتتعرض لبيان الروح الجوال فى العوالم بمغادرته الجسم فى أثناء النوم ، وللروح المحتفظة بصلة الهيكل الجسمانى الكثيف بالجسم اللطيف الذى ذكرناه بالروح الجوال ، وتصرفات الروح الخارقة للعادات وغير ذلك مما يفتح أفقاً واسعاً للباحثين ، وينير كثيراً من نواحى هذا البحث العويص المتشعب على

مذاق خاص مزيج بالتصوف والفلسفة يهتم به كثير من الناظرين . ففى نشرها فوائد للروحيين ، والله ولى النفع ، ومنه التوفيق والتسديد .

محمد زاهد الكوثرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق آدم على صورته[١٤] ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد الذى ظهر بحقيقته ، وعلى آله وصحبه خزنة علومه وسلاك طريقته بشريعته . وبعد :

فهذه رسالة فى حقيقة الإنسان ، وما ركبه الله تعالى فيه ، واجب حفظها للأذكياء لكثرة فوائدها . ووفرة عوائدها ، وهى من مواهب الحق عز وجل ، تعبت فى تأليفها مدة خمسة أعوام لكونى أحببت أن أثبت معجزات الأنبياء ، وكرامات الأولياء ، بالدليل العقلى لأجل إلزام الخصماء . وهذا لا ييسر إلا بعد معرفة خواص الإنسان ، ومعرفة حقيقته . وما هو مركب منه ، والله الهادى لا إله غيره .

---

(١٤) الضمير راجع لآدم فيكون المؤلف حمد الله سبحانه على خلق آدم ونبيه فى أحسن تقويم ، على الشكل المختار لهم والصفات المتخيرة لآدم وبنيه ، لكون ذلك كله أبدع ما خلق عليه مخلوق مما يمكنه من وجوه التصرف ، وفيه إشارة إلى حديث البخارى ومسلم عند ذكرهما طول آدم فى أول الخلقة ، وجزم الخطابى برجوع الضمير إلى آدم لقربه ولاستحالة التخاطيط على الله ، وكذا فى حديث آخر فى اجتناب ضرب وجه الخادم لكون وجه هذا المضروب كوجه آدم أبى كل إنسان ، بحيث يجب عليه بره واحترامه .

وأما حديث (على صورة الرحمن) فى بعض الروايات فتغيير من بعض الرواة على فهمه المعوج ، وليس بلفظ الرسول ، وقد رد ابن خزيمة فى (كتاب التوحيد) هذه الرواية بعلل إرسال الثورى على خلاف الأعمش ، وعنعنة الأعمش ، وعنعنة حبيب بن أبى ثابت وهما مدلسان ، والمدلس إذا عنعن ترد روايته ، والله سبحانه هو مصور كل ذى صورة وليس بذى صورة على خلاف اعتقاد المجسمة كما هو مشروح فى دفع الشبه لابن الجوزى والسيف الصقيل للتقى السبكى والأسماء والصفات للبيهقى .

اعلم أن الإنسان مركب من ثلاثة أشياء . من جسم كثيف . وجسم لطيف . وروح ، وإن شئت زيادة إيضاح . فاعلم أن جسمك الكثيف هو الجسم الراقد فى الفراش حالة النوم ، وجسمك اللطيف هو الجسم الذى يسير فى النوم ، والروح هو الرابطة بين الجسم الكثيف والجسم اللطيف وهو الاستعداد[١٥] المودع فيه المسمى بالروح . ويحصل الموت بافتراق الجسمين إلى يوم القيامة كما ستقف عليه .

ثم اعلم أن الفناء للجسم الكثيف دون الجسم اللطيف والروح ، فإن قلت هل الفناء على الجسم الكثيف دونهما عام فى جملة الأجسام من الكفار ، والمؤمنين ، والأولياء وغيرهم أم لا ؟ قلت نعم عام فى جميعها إلا ما استثنى الشارع من أجسام الأنبياء والشهداء ، وبعض الأولياء . فإن قلت ما الدليل على بقائهما ؟ قلت : أما الكفار فقد ورد عن النبى ﷺ أنه مر بقليب بدر[١٦] فخاطب أموات الكفار بقوله : (إنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا) ، فقيل للنبى ﷺ : أتخاطب عظاماً أرمت فقال ﷺ : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول لكنهم لا يجيبون » .

وأما المؤمنون فقد ثبت أيضاً أنه ، ﷺ ، خاطبهم وسلم عليهم وثبت أيضاً فى الحديث الصحيح النبوى علم الميت بمن يزوره ، فى قبره وفرحه بزائره ، ورده سلامه ، وتأذيه ممّن يجلس على قبره . وفى البخارى[١٧] أن أحد الصحابة جلس

---

(١٥) يريد ما به الاستعداد ، لا الاستعداد نفسه إذ لا شأن للعرض هنا .

(١٦) حديث قليب بدر أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة فى المعنى .

(١٧) كلا بل أخرج الترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ضرب بعض أصحاب النبى ، ﷺ ، خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك ، حتى ختمها فأتى النبى ، ﷺ ، فأخبره فقال رسول الله ﷺ : هى المانعة هى المنجية تنجى من عذاب القبر .

على قبر ، ولم يعلم أنه قبر فسمع قراءة الميت سورة الملك من داخل قبره .

وبالجملة فما ذكرنا من عدم فناء الأجسام اللطيفة ، والأرواح ، وعلم الأموات جميعاً بزوارهم ، وسماعهم أقوالهم ، ومخاطباتهم بل تميزهم بقوة العلم والسماع عن الأحياء صحيح ثابت ، بحيث يخشى على منكره الكفر . وناهيك دليلاً على ما قلنا قوله تعالى .

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) ، والأحاديث التى سبقت وما ورد فى كتب الصحاح . فإن قلت : إذا كان أموات المؤمنين والكفار متساوين فى هذا الأمر فما الفرق بين أموات هؤلاء وهؤلاء ، قلت كما أن عالم الشهادة الذى هو عالم الدنيا فيه المسجون والمطلق ، والمنعم ، والمعذب ، وذو المناصب الرفيعة ، والأراذل ، والجنان ، والمزابل ، كذلك عالم البرزخ فالمؤمنون ، والأنبياء والأولياء يعلمون بالزوار ويسمعون كلامهم من مقاماتهم الجليلة ، وهم منعمون بأنواع النعم على قدر مراتبهم . وأما الكفار والعصاة فإنهم يسمعون من مقاماتهم السافلة السيئة المتنة النجسة ، وهم معذبون بأنواع العذاب على قدر مراتبهم . فإن قلت فأين مقر هذه الأجسام اللطيفة وأين مقر الأرواح ؟ فاعلم أننا سمينا فى هذه الرسالة الاستعداد[١٨] المودع فى الأجسام الكثيفة لقبول الأجسام اللطيفة وحلولها فيها روحاً لكون العقل والنقل يحكمان بحياة النائم ، وأنه ليس بميت وذلك بما يشاهد من تنفس النائم وحركة نبضه فى حال نومه ، وإن كان جسمه اللطيف مفارقاً لجسمه الكثيف

---

(١٨) أى ما يحصل به إشراق الاستعداد على الجسم الكثيف لقبول حلول الجسم اللطيف فيه على أن يكون من قبيل ذكر المسبب ، وإرادة السبب سراً لمرماه عن غير أهله فيكون المراد به الروح الإنسانى المعبر عنه بالأمر الربانى ، واللطيفة الربانية المدركة العالمة المعدودة جوهراً مجرداً تتصرف فى النسمة التى هى الجسم اللطيف ، وفى الجسم الكثيف فى آن واحد ولذا تعد النسمة مطية للروح الإنسانى .

سائراً فى عالم البرزخ بسبب ركود حواسه بالنوم الحاصل من الأبخرة المرطبة للجسم والدماغ ، أو بسبب الإغماء الحاصل من فساد المزاج فهذا الروح لا يعلم مقره ومكانه[١٩] . وعلم ذلك عند الله تعالى .

وأما الجسم اللطيف الحال فى الجسم الكثيف ما دام الكثيف مستعدًّا لحلول اللطيف فيه المفارق له فى حالة النوم إلى وقت الانتباه ، وفى حال الموت إلى وقت سؤال الملكين فى القبر ، وبعد السؤال إلى الحشر فهو يسمى بالروح أيضاً فى لسان الشرع : وجميع ما ورد من حياة الشهداء وعدم موت المؤمن وانتقاله من دار إلى دار ، وخلقه للأبد لا للموت ومقر أرواح الشهداء والمؤمنين ، ومقر أرواح الكفار فالمراد به هذا الجسم اللطيف الحال فى الكثيف وهو المسمى بالروح فى قوله ، ﷺ ، فى شهداء أحد « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش[٢٠] .

وأنت خبير بأن النبى ، ﷺ ، لو أراد بالأرواح الكائنة فى الأجسام الكثيفة التى سميناها بالاستعداد المودع فيها الحلول اللطيف فيها لجاز التناسخ[٢١] من هذه الأجسام اللطيفة ، وكذلك يدل على ما قلنا الحديث الذى رواه عمر ابن عبدالعزيز ، وهو ما أخرجه الحافظ أبو نعيم أنه قال : « إنما خلقتم للأبد لكنكم تنقلون من دار إلى دار » .

وأنت خبير بأن هذا الجسم الكثيف يفنى ويصير تراباً ، فتعين أن يكون المراد

---

(١٩) لأن الجمهور على أنه جسم لطيف أيضاً ، وسبق أنه جوهر مجرد عند طائفة .

(٢٠) أخرجه محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية عن أبى الزبير عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢١) وهو باطل فى الشرائع الإلهية ، وما به الاستعداد هو مدار الحياة فينتفى التناسخ بانتفاء قصد هذا الروح الإنسانى الذى هو مدار الحياة .

بها الأجسام اللطيفة . لا يقال إن الروح الذى سميتموه بالاستعداد المودع فى الكثيف هو المتنقل من دار إلى دار وهو المراد – والله أعلم – بقوله عز وجل : (قل الروح من أمر ربى) .

إذا علمت ذلك فاعلم أن مقر أرواح المؤمنين التى هى أجسامهم اللطيفة هو السماء السابعة ، على ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ، ﷺ ، أنه قال[٢٢] : « أن أرواح المؤمنين فى السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم فى الجنة » . وروت أم بشر رضى الله عنها – وهى صحابية – قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ونسمة الكافر فى سجين »[٢٣] .

فإن قلت كيف يعلم الميت الزائر ويسمع كلامه وهو فى السماء السابعة وجسمه الكثيف صار تراباً ، وكذا الكافر كيف يسمع وهو مسجون فى سجين ، قلنا : هذا محل بروز جواهر هذه الرسالة ، فكانت معدن الجواهر فاسمع لما نقول وانظر إلى ما أودعه الله تعالى فى الإنسان من الخواص التى تحير العقول . ثم تفطن أن الله تعالى لما جعل الإنسان مركباً من جسم كثيف وهو الجسد . وجسم لطيف وهو السائر فى حالة النوم ومن روح هو الرابطة بينهما جعل الكثيف مربوطاً بعادات بحيث لا يقطع المسافة إلا بالخطى ، ولا يستعلى إلا بالصعود ، ولا يشبع إلا بالأكل ، ولا يروى إلا بالشرب ، ولا ينفق إلا بالكسب إلى غير ذلك من العادات . وجعل الجسم اللطيف مربوطاً بخرق العوائد بحيث لا يستحيل عليه شىء فتراه إذا فارق هذا الكثيف فى حالة النوم ، يطير فى الهواء ، ويمشى على

---

(٢٢) أخرجه الديلمى وليس بذاك .

(٢٣) ولفظ ابن منده : أن أرواح المؤمنين نسمة تسرح فى الجنة حيث تشاء ، وأن نسمة الفاجر فى سجين .

الماء ، ويجتمع بالأنبياء ، ويقطع من المشرق إلى المغرب فى لحظة ، ويصعد بالطيران إلى العرش ولا يستحيل عليه شيء مما هو معروف من حال النائم ، ثم إنه إذا رأى نفسه عند العرش وأيقظه أحد يرجع ويحل فى الجسم ، ويستيقظ النائم مقدار طرفة عين ، ولا يحصل للجسم الكثيف انزعاج عند حلوله فيه بل يستيقظ ولا يعلم كيفية حلوله ، هذا مع بعد المسافة من العرش إلى الأرض . وكل هذه الأشياء إنما لا يستحيل عليه لكونه لطيفاً ، وهكذا الأجسام اللطيفة من الملائكة وغيرهم .

إذا علمت ذلك فاعلم أن الأنبياء ، والأولياء لما تحققوا بعدم استحالة خرق العوائد على الأجسام اللطيفة لطفوا أجسادهم الكثيفة أيضاً بأنواع الرياضات ، والمجاهدات ، ومخالفة النفس وترك الشهوات حتى تلطفت أجسادهم الكثيفة ، وصارت مضاهية لأجسامهم اللطيفة وظهرت منهم المعجزات ، والكرامات ، وجميع خوارق العوائد لعدم استحالة شيء على الأجسام اللطيفة .

ثم اعلم أن الأموات يعلمون بزوارهم ، ويسمعون كلامهم[٢٤] ، ويتأذون بمن يجلس على قبورهم بأجسامهم اللطيفة وإن كان ثمة مسافة . وقد أخرج ابن أبى الدنيا عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم »[٢٥] .

---

(٢٤) قال سعد الدين التفتازانى فى شرح المقاصد (٢ - ٣٢) : « الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس بعد المفارقة إدراكات جزئية ، واطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء سيما الذين كان بينهم وبين الميت تعارف فى الدنيا ، ولهذا ينتفع بزيارة القبور والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات فى استنزال الخيرات واستدفاع الملمات ، فإن للنفس بعد المفارقة تعلقاً ما بالبدن وبالتربة التى دفن فيها ، فإذا زار الحى تلك التربة وتوجهت تلقاء نفس الميت حصل بين النفسين ملاقاة وإفاضات .

(٢٥) فى سنده يحيى بن ريمان وعبد الله بن سمعان وهو ابن زياد .

« وأما الذين لا تأكل الأرض أجسادهم فلهم أحوال وأسرار تحير العقول[٢٦] ، ولا يجوز كشفها وإفشاؤها . ومن كان ذا ذهن وذكاء يتفطن لها بما رمزنا فى هذه الرسالة والله تعالى أعلم » .

تمت رسالة حقيقة الإنسان للإمام جلال الدين الدوانى رحمه الله تعالى .

---

(٢٦) بل أرواح هؤلاء الكمل كالسيوف المغمدة ما دامت فى أجسادها ، وعند انسلاخها من الأجساد تصبح كالسيوف المجردة فى قوة المضاء كما هو مشروح فى موضعه ، وترى ابن القيم يعزو إلى ذلك الروح هزم جيوش فليراجع كتاب الروح له .